

شبيعةُ العراقِ اليوم
مشروعُهُم الحياتي
ما بينَ ضروراتِ ثلاث:

الزمن

الأرض

المعتقد

عبدُ الحليمِ الغزبي

شعبةُ العراقِ اليوم
مشروعُهم الحياتي
ما بينَ ضروراتِ ثلاثِ :

الزمن

الأرض

المُعتقد

عبدُ الحلِيم الغزّي

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

يا زهراء

اللهم كُنْ لوليِّكَ الحجَّةِ بنِ الحسنِ
صلواتك عليه وعلى آبائه في هذه
الساعة وفي كلِّ ساعة ووليّاً وحافظاً
وقائداً وناصرأً ودليلاً وعيناً حتّى
تُسكِنَهُ أرضَكَ طَوْعاً وتُمَتِّعَهُ فيها
طويلاً.

الى كُلِّ قَلْبٍ فِي أَرْضِ السَّوَادِ يَنْبِضُ بِهِمْ آلِ
مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ !
فَلَقَدْ قَالَهَا صَادِقُ الْعَتْرَةِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا أَفْضَلُ
الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ : (نَفْسُ الْمَهْمُومِ لُظْمِنَا
تَسْبِيحًا ، وَهَمُّهُ لَنَا عِبَادَةٌ)⁽¹⁾ !!!

رَاجِعِي دُعَاءَكُمْ

الغزّي

1429هـ

(11) عن أمالي الشيخ المفيد (ره) ص 200، وأمالي الشيخ الطوسي (ره) ص 72، وقد قال الامام الصادق عليه السلام في آخر هذا الحديث: (يجب ان يُكتبَ هذا الحديثُ بالذهب).

البداية :

الحديثُ عن مشروعٍ مُفترضٍ لشيعةِ العراق
في هذا المقطعِ الزمني الحساسِ محكومٌ بثلاثة
أمور :

أولها - أنه مشروعُ أمةٍ وليسَ مشروعاً لفردٍ
أو مجموعةِ أفرادٍ, وفارقٌ كبيرٌ جداً بين
المشاريعِ الفرديةِ ومشاريعِ الأممِ إذِ لكلِّ
صنفٍ خصائصه وشرائطه الموضوعيةِ
ومدياته الزمانية وطبيعةِ علائقه وآلياته وسعةِ
أهدافه وضيقتها, وما يُصاحبُ ذلكَ من

مرونة في العمل وتحديات وموانع تعترضُ الطريق .

وثانيها - أنه مشروعٌ حياتيٌّ من الطراز الأول وهو بذاك يختلفُ كثيراً عن المشاريع غير الحياتية مهما كانت أهميتها إذ بين الاثنين بونٌ شاسعٌ في جميع الإتجاهات, فالمشروع الحياتي ضرورةٌ ملزمةٌ يُمليها الواقع وحاجةٌ ملحةٌ تفرضُها شؤون الحياة اليومية ومُلبساتها بدرجةٍ لا يمكنُ الاستغناء عنها ولمديات بعيدة وطويلة الأمد .

هذا إذا أردنا تطويرَ الواقع وتحسينه والنهوضَ

به الى الأمام كي نُمسِكَ بعروةِ ضمانةِ
الحاضر والمستقبل لجيلنا هذا والأجيال الآتية،
بينما تتسم المشاريعُ غيرُ الحياتيةِ أنهما في حدِّ
الكماليات لا في حدِّ الضرورات فضلاً عن
أنهما محدودة الأهداف محصورة المدى .

وثالثها - أنَّ الفرصةَ السانحةَ لشيعة العراق
في الظرف الراهن لم يسنحْ لهم مثلها عبر
تاريخهم الطويل أو على الأقل خلال القرنين
الماضيين، وهما أكثر قرون التاريخ البشري
تبدلاً وتقلُّباً حيث تغيّر وجه الحياة على الكرة
الأرضية كلياً وفي جميع مناحيها ونواحيها .

(1)

عانى شيعَةُ العراق من القمع والتعذيب والتنكيل والظلم الفاحش الأمرين إبان الحكم العثماني الجائر وما تلته من حكومات كان آخرها النظام الصدّامي البعثي المجرم، ولم تسنح لهم الفرصة المناسبة للتهوؤ بأوضاعهم المتردية، وانها اذ تسنح اليوم لهم فعليهم اغتنامها وانتهازها فإنَّ الفرصَ كما يقول سيد الأوصياء عليه أفضل الصلاة والسلام : (تمرُّ مرَّ السحاب) ولن تعود

ثانيةً، ولات حين مندم .
وإني حين أتحدّثُ عن مشروعٍ حياتيٍّ لشيعة
العراق فلا أتحدّثُ عن مشروعٍ سياسيٍّ أو
شكلٍ معينٍ لنظام الحكم، وإنما أتحدّثُ عن
البنية الاجتماعية والثقافية والعقائدية مدعومةً
بالبنية الاقتصادية الأهلية لا الحكومية، فإنَّ
العمل بهذا الاتجاه هو الذي يحفظ الكيان
الشيوعي ويحميه من التقلّبات السياسية التي
لا يمكن التحكّم فيها في جميع الأحوال .
لا شكّ ان المشاركة الشيعية في النظام
السياسي أمرٌ ضروري لا يمكن التنازل عنه

إلا أن هذا ليس مأخوذاً بنظر الاعتبار في أولويات هذا المشروع المفترض؛ إذ أن شيعة العراق بحاجة اليوم إلى رص صفوفهم وجمع كلمتهم وتوحيد طاقاتهم وخبراتهم وظفر إمكاناتهم المادية والمعنوية لاجل انشاء مؤسسات أهلية متنوعة لتنظم أمور شيعة أهل البيت عليهم السلام في شتى مجالات الحياة المختلفة ابتداءً من مؤسسات الدراسات والبحوث الاستراتيجية وانتهاءً بمؤسسات العمل الخيري والطوعي .

وكل ذلك إنما يجري ضمن سلطة الدولة

العراقية واتباع دستورها وقوانينها، سواء تم إقرار الدولة ذات الحكومة الواحدة المركزية أو الدولة ذات الأقاليم المتعددة، فعلى شيعة العراق الخروج من دور المعارضة التقليديّ علّهم يفلحون في بناء كيانهم بشكلٍ علميٍّ يتناسب والظروف الراهنة، وما ستجلبه الأيام القادمة من تحدياتٍ هائلةٍ وضخمةٍ في جميع الاتجاهات .

(2)

شيعة العراق أمة حقيقية بكل ما لكلمة الأمة من معنى اذ يمتلكون جميع المقومات الأساسية التي تقوم عليها الأمم المتكاملة والناجحة فهم يمتلكون :

أولاً - التاريخ العريق بكل ما فيه من عمق التجربة الإنسانية وعلى جميع مستوياتها إن كان من جهة فاعليتهم وتأثيرهم في الاحداث المهمة التي مرّت في تاريخ العراق والمنطقة المجاورة له, أو من جهة تفاعلهم مع مجريات

مسيرة الأحداث في القرون الماضية والأجيال السالفة، وذلك ما يشكّل بطبيعة الحال القاعدة التي تستند إليها أيّ امة في بناء كيانها ووجودها وقوة اسس بقائها؛ إذ أنّ ماضي أيّ امة يمثّل قاعدة البوصلة التي تحدّد اتجاهات مسارات حاضرها ومستقبلها .

ثانياً - الطاقات البشرية الوافرة مع الإمكانيات المادية الغزيرة والتي تُمكن أيّ امة من بناء حاضرٍ قويٍّ متينٍ تتحقّق فيه حركتها الحياتية بنجاحٍ نحو المستقبل الواعد . وعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر العلمي

الدقيق أعرض عناوين إجمالية لما يملكه شيعةُ العراق في هذين الأمرين :

1 - كثرةُ عدد نفوسهم مع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ الفئةَ العُمريةَ الأكثر هي فئةُ الأطفال والشباب .

2 - إتساعُ مساحة الأرض التي يقطنونها .

3 - وفرةُ المياه والأراضي الزراعية الخصبة في مناطقهم .

4 - كثرةُ وأهميةُ مراكز السياحة الدينية والأثرية التاريخية حيث يقطنون .

5 - وجود العاصمة الدينية لكل الشيعة في

انحاء العالم المختلفة في النجف الاشرف حيث
مركز الزعامة الدينية والمرجعية الشيعية,
وحيث الحوزة العلمية التي تمثل الجامعة
العلمية الدينية التاريخية العريقة الأهم لكل
الشيعة في العالم .

6 - ضخامة الثروات النفطية والمعدنية في
أراضيهم .

7 - الاعداد الهائلة من الأكاديميين
والخريجين رجالاً ونساءً .

8 - الاعداد الوفيرة من الكتّاب والمثقفين
والأدباء والشعراء والمبدعين والفنانين

والرياضيين رجالاً ونساءً .

9 - الاعداد الكثيرة من ذوي الخبرات

المختلفة من عمّال فنيين ومزارعين وحرفيين .

10 - الإمكانيات المالية الضخمة في المؤسسة

الدينية الشيعية بكلّ فروعها إن كان ذلك

بالفعل أو بالقوة, وكذلك ما يمتلكه اصحاب

رؤوس الأموال في طبقة واسعة من تجار شيعة

العراق .

ويمكن إضافة أمرين الى ذلك :

أ - الكفاءات العراقية الشيعية الموجودة

خارج العراق وهي طبقة واسعة عريضة

مشبعة بخبرات عالية وتجارب مفيدة جداً
مُستقاة من البلدان المتقدّمة التي يعيشون فيها.
ب - إمكانية الاستفادة من الطاقات
والخبرات الشيعية في البلدان الأخرى كدول
الخليج مثلاً .

ثالثاً - الفكرُ والإبداعُ وهُما جوازُ كُلِّ أمةٍ
الى مستقبلٍ آمنٍ ورغيدٍ، ولشيعَة العراق حُظٌّ
وفيرٌ منهما إن كان ذلك في سالفِ الأزمانِ
أو في حاضرهما، وبتوافُرِ هذه المقوماتِ :
1- التأريخُ العريقُ .

2- الطاقات البشرية الوافرة مع الامكانيات

المادية الغزيرة .

3- الفكر والابداع .

يتمكّنُ شيعةُ العراق من ضبط حركتهم في الاتجاه الصحيح الموائم لشروط المرحلة التاريخية الحاضرة والمنسجم مع الظروف الموضوعية الراهنة مع ملاحظة ان لا يكون ذلك متصادماً مع مصالح بقية أبناء العراق من السنة والاكراد والتركمان وغيرهم، بل يتوجّبُ على شيعة العراق ان يكسبوا ثقة أبناء وطنهم جميعاً، وذلك بدفاعهم عن حقوقهم ومصالحهم وحرّياتهم كما يدافعون

عن حقوق أنفسهم ومصالحهم وحررياتهم,
فإنّ ذلك يعودُ بالخير العميم على الاطراف
جميعاً, إذ أنّ الإخلالَ بحقوقِ الآخرين
سيكونُ سبباً للإخلالِ بحقوقهم هم بنحوٍ
مباشر أو غير مباشر .

ومن هنا فلا بُدَّ ان يتحمّل الجميع مسؤولية
الحفاظ على مصالح الجميع كي تتمكن
السفينةُ من وصولها الى شاطئ الأمان ويقوم
العراقُ من تحت أنقاض هذا الخراب والّا :
لا يكملُ البنيانُ يوماً تمامه

إذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدم

(3)

الجهات الفاعلة في الوسط الشيعي العراقي
والتي يمكنها لو تضافرت جهودها ضمن
برنامج عمليّ مدروس ان تنهضَ بهذا
المشروع الحياتي المفترض :
أولاً - المؤسسة الدينية .
ثانياً - الكيانات السياسية .
ثالثاً - الزعماء الشعبيون والوجهاء
المجتمعيون .
رابعاً - الخبراء والأكاديميون .

خامساً - المثقفون وأصحاب المواهب .

سادساً - أصحاب الاموال .

فكلُّ جهةٍ من هذه الجهات المذكورة تملكُ قدرًا من الإمكانيات المادية والإمكانات المعنوية فضلاً عن الطاقات والكفاءات البشرية وكلُّ بحسبه وفي مجالٍ تخصّصه .

فلو اجتمعت هذه الطاقات والكفاءات مع تلكم الإمكانيات المادية والمعنوية المتوفرة وفي ظلِّ مخططٍ علميٍّ واضحٍ يشخّصُ الأهداف الأولية والثانوية بدقة ويحدّدُ آلياتِ الوصول إليها بنحوٍ مُجدولٍ ومحسوبٍ بعد دراسةٍ

مستفيضةً لحاجاتِ ونواقصِ ومشاكلِ ونقاطِ
ضعفِ الكيانِ الشيعيِّ في العراقِ بشكلٍ عامٍ
لاستطاعتِ ان تصنعَ الأعاجيبَ .

(4)

أهمُّ الاتجاهات الرئيسة لمسارات حركة هذا المشروع المفترض :

1 - النهوض بالوضع الاقتصادي لشيعة أهل البيت عليهم السلام سواء عن طريق مشاريع أهلية⁽¹⁾ أو عن طريق مشاريع مشتركة أهلية حكومية .

(1) المراد من المشاريع الأهلية ليست مشاريع القطاع الخاص والتي يملكها عادةً فرد أو مجموعة أفراد, وإنما المراد شركات مساهمة يشارك فيها جميع أو أغلب أبناء الأمة أو على الأقل جموع غفيرة منهم كلٌّ بحسب مقدرته .

2 - العمل مع الحكومة وبشكلٍ واسعٍ في مشاريع الإعمار وفي مشاريع الاستثمار بالنحو الذي لا يعود بالفائدة على عددٍ محدودٍ من أصحاب الشركات الخاصة فقط، وبالتالي لا يتحقّق المطلوب من الوصول الى عميم الفائدة المرجوة لكل أبناء الأمة وإنما يكون ذلك من خلال مؤسسة اقتصادية كبيرة يساهم فيها الجميع، ستأتي الإشارة إليها في الفقرة القادمة .

3 - تقوية الكيان الشيعي من خلال وحدة الموقف السياسي الجماهيري، ومن خلال

الدور الفاعل الذي يتناسب وحجمهم
وكتافتهم السكانية في مراكز القرار في الدولة
العراقية .

4 - وضع برامج عملية بحدود الممكن
للتنمية البشرية للأفراد وخصوصاً طبقة
الأطفال والشباب .

5 - ترسيخ الفكر الشيعي والعقائد الشيعية
الأصيلة وشدُّ قلوب أبناء التشيع الى دينهم
ومعتقداتهم . وكلُّ ما تقدّم ذكره انما توظّف
ثماره ونتائجه في خدمة هذا الأمر والا فلا
فائدة حقيقية تُرجى من هذا المشروع أصلاً .

(5)

ما تقدّم ذكره في الفقرة السابقة لا يمكن ان يتحقّق عملياً على أرض الواقع المعاش الآ عن طريق مؤسسات ذات حرفة ومهنية عاليتين يُشرفُ عليها مدراء هاجسهم الوحيد الحرس والنجاح, ولا يمكنني أن أحصر عناوين هذه المؤسسات على الورق اذا كنتُ جاداً فيما أقول, لأنّ ذلك يحتاج الى عمل حقيقي على الأرض ومسح دقيق لكل المتطلّبات والمعطيات المتعلقة بهذا المشروع المفترض لو

أردنا تحقيقه والعملَ وفقاً لمضمونه . إلا أنني
أشير بنحوٍ إجمالي إلى أهمِّ عناوين تلكم
المؤسسات الأهلية التي يتوقَّفُ نجاحُ هذا
المشروع على وجودها وعملها ونشاطها :
أ - مؤسسة كبيرة أو مجموعة مراكز
للدراستات الاستراتيجية التي تحاول دراسة
اوضاع شيعة العراق وتقييم مسيرتهم
التاريخية في أبعادها السياسية والاجتماعية
والعقائدية على الأقل في القرن الماضي مثلاً،
للإعتبار من الأخطاء والهفوات, وللإستفادة
من التجارب الناجحة في وضع مخططات

وبرامج تقوية الوجود الشيعي في العراق إن
كان ذلك في الحاضر أو في المستقبل .
ب - مؤسسة إعلامية شاملة تعمل بأحدث
التقنيات وبعيدة كل البعد عن التجاذبات
السياسية هدفها الاسمي توعية المجتمع الشيعي
ونشر فكر أهل البيت عليهم السلام على
أوسع المستويات وبكل الوسائل المتاحة
المقروءة والمسموعة والمرئية بكل أشكالها,
ولابد من التأكيد على أهمّ وسيلتين في
عصرنا الحاضر :

التلفاز والسينما اللذان لهما من التأثير على

المجتمع البشري بنحو يتجاوز السحر
وعمليات غسل الأدمغة بكثيرٍ جداً .

ج - مؤسسة واسعة أو مجموعة مراكز أو
معاهد للبحث عن المواهب وتنميتها وصقلها
ورعاية أصحابها بتوفير الظروف الملائمة لهم
ولقدراتهم في مختلف حقول العلم والأدب
والفنون والرياضة والحرف والصنائع .

د - مصرف أهلي كبير مُساهم أو مجموعة
مصارف أهلية مُساهمة تشرف على مؤسسة
اقتصادية تتألف من مجموعة شركات كبيرة
مساهمة يُساهم فيها كلُّ شعبة العراق أو

أغلبهم أو على الأقل أعداد كثيرة منهم تعود
أرباحها للمساهمين ولإلنفاق على المؤسسات
الأهلية المتقدّمة الذكر وما تحتاجه في برامجها
وأعمالها وإنجازاتها .

وملاحظة هنا في غاية الأهمية : أن تكون
مفاصلُ القرار والتخطيط والتنفيذ الفني في
كلّ هذه المؤسسات بيد أصحاب التخصص
كي يتمكنوا من إنجاز أعمالهم بمهنية وحرفية
تحققان أفضل ما يمكن الوصول إليه من
النتائج .

(6)

قد يرى البعض أن الفقرتين الرابعة والخامسة
قد أغمضتا عن كثيرٍ من الأولويات في حياة
أبناء العراق اليومية من شماله الى جنوبه .
أقول : نعم فإنّ هذا المشروع المفترض ليسَ
بديلاً عن الدولة ولا مُنافساً لها ولا قائماً
مقامها في مجالات ما يُفترضُ على الدولة
وأجهزتها القيام به . إذ أنّ المقصدَ الكليَّ
لهذا المشروع هو حماية الأمة الشيعية وتحصين
كيانها من أن يُفتك بها كما حصل في السابق

من قتل أبنائها وسلب أموالها وتشريد الاعداد
الكثيرة منهم ومحاربتهم في لقمة عيشهم
وإخضاعهم لإرهاب وإرعاب مستمرين، الى
غير ذلك من أساليب القمع والتنكيل والظلم
في كل صغيرة وكبيرة من شؤون حياتهم
بنحو لا يستطيع تصوّره أحد الا من اكتوى
بنار الظلم والجور هذه، لكنّ هذا لا يعني أن
تُهمل هذه الأولويات اذ هي داخلة في سياق
مشاريع الإعمار والاستثمار التي تقدّم ذكرها
في الفقرة الرابعة .

وأشيرُ هنا بنحوٍ مجملٍ الى أهمّ تلكم

الأولويات أجعلها في خمس مثلثات, وذلك
لوجود روابط ووشائج بنحوٍ ما بين اضلاع
كل مثلث :

المثلث الأول : خدمات الكهرباء / الماء /
الوقود .

المثلث الثاني : خدمات البيئة / الصحّة /
التعليم .

المثلث الثالث : الثروة المائية / الزراعية /
الحيوانية .

المثلث الرابع : النقل البري / الجوّي /
البحري .

المثلث الخامس : تحديث وتطوير النظام
الاداري / المصرفي / مراكز البحث العلمي
المختبري والتكنولوجي .
ولا اتحدتُ هنا عن تطوير استثمار النفط
والثروات المعدنية بالاضافة الى ضرورة تطوير
وتوسعة الصناعات النفطية والمعدنية,
فإنهما خبزُ العراق وماؤه ومن دونهما لن
تتحرك عجلة الحياة الاقتصادية والسياسية في
بلاد الرافدين بالشكل المطلوب .

(7)

ما مرّ من حديثٍ في الفقراتِ المتقدّمة كان عرضاً إجمالياً مختصراً للخطوط العامة واتّجاهات المسارات في هذا المشروع الذي نحن بصدد الحديث عنه . ولكن بقي الجزء الأهمُّ وهو الحديث عن روح هذا المشروع وبعبارةٍ أخرى المحرّكُ الأساسُ الذي يبعثُ الطاقة والحياة في مفاصل هذا المشروع كي تتحرّك وتنشط أجزاءه وأطرافه . لذا يلزمُني بيانُ هذه الحقيقة :

إنَّ أيَّ مشروعٍ مفترضٍ هذا أو غيره إذا أُريدَ
تفعيله فإنَّه لن يتحرَّكَ أبداً إلاَّ بوجود مادَّة
حياته الفاعلة وهي عبارة موجزة :

[الإنسان + إمكاناته الماديَّة والمعنويَّة]

ولو وُجِدَت هذه الموادُّ الرئيِّسةُ الفاعلة فإنَّ
حياةَ المشروع واستمراريتها ودوامها
ونجاحه لن يتحقَّق منها شيءٌ إلاَّ في ظلِّ
شرطين لا يمكنُ إغفالهما أبداً من وجهة نظرٍ
فلسفيَّةٍ أو من جهةٍ عمليَّةٍ وفعليَّةٍ هما :
أولاً - انتفاء الموانع من طريق المشروع
المفترض .

ثانياً - توفرُ الدوافع النفسية القوية الباعثة على الحركة والنشاط والعمل الجاد المتواصل عند الإنسان لتحقيق هذا المشروع .

أما بالنسبة للموانع في مشروع كالذي نعرضه في هذه الصفحات القليلة قد تكون ماديةً بحتةً أو فنيةً وخُبْرَويةً أو ربما سياسيةً واجتماعيةً أو قد تكون مجتمعةً كلها . فأما الأولى والثانية فذلك شأنُ أبناءِ الأمةِ إذ يُفترضُ بهم أن يكونوا على أهبةِ الاستعدادِ لبذلِ قُصارى جهودهم في تخطي هذه الموانع وتجاوزها ورفعها من الطريق . واما الثالثةُ

فذلك شأنُ عيونِ الأمةِ ورجالِها وما هُم
عليه من درايةٍ وحكمةٍ ومرونةٍ وحزمٍ في
العملِ يزينُ كلُّ ذلكُ الرفقُ الواعي لا
السذاجةَ والاهمالَ والتكاسلَ والتمني؛ فإنَّ
الرفقَ ما كان في شيءٍ إلاَّ زانه، كما قال
خاتمُ الأنبياءِ صلى الله عليه وآله . هذا ما
يتعلَّقُ بالموانعِ وأمَّا الدوافعُ النفسيةُ سواءً
كانت للفردِ أو للأمةِ فإنَّ مردَّها للحالةِ
النفسيةِ العامةِ والتي يُعبَّرُ عنها في أحاديثِ
المعصومين عليهم السلام بالنية، وهي ليست
النية الجزئية بالمصطلح الفقهي المتعلقة بعملٍ

جزئي أو منفرد كنيّة أداء فرضٍ من فروض الصلاة مثلاً، وإنما هي النية المرتكزة في كيان الشخصية فرداً كان أو أمة والتي عبّر عنها في الأحاديث المعصومية الشريفة بأنها السرُّ في خلود أهل الجنان في جناتهم وأهل النيران في نيرانهم (1) .

(1) في الكافي الشريف عن الامام الصادق عليه السلام : (إنما خُلِدَ أهل النار في النار لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلِدوا فيها ان يعصوا الله ابداً، وأنما خُلِدَ أهل الجنة في الجنة لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها ان يُطيعوا الله ابداً، فبالنيّات خُلِدَ هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ قال: على نيّته . الكافي: ج 2 ص 69 ح 5 والبحار: ج 67 ص 201 ح 5 .

هذه الحالة النفسية العامة هي التي تُمثِّلُ القاعدة أو الأساس الذي تتفرَّعُ منه وتنشأُ منه الدوافع النفسية . وهنا تختلف الحالة الفردية عن حالة الأمة حين الدخول في تفاصيل تكوين الحالة النفسية العامة, وذلك ان عوامل الضغط النفسي مختلفة بنوعيتها السالبة والموجبة بالنسبة للأفراد أو بالنسبة للأمة، وما يهْمُنَا هنا هو الحديث عن الحالة النفسية العامة للأمة .

بنحوٍ عام تنشأُ الحالةُ النفسيةُ العامة لكلِّ أمة من الأمم من تفاعلها مع الضرورات الثلاث

المحدقة بجميع أجزاء حياتها وهي :

1- الزمن .

2- الأرض .

3- المُعْتَقَد .

وتتباينُ الأمم في التفاعل مع هذه الضرورات الثلاث عبر مسيرة حياتها وتاريخها؛ والسُرُّ في ذلك هو اختلاف خصوصيات هذه الضرورات الثلاث من أمة لأخرى هذا أولاً، وثانياً اختلاف مدى الترابط بين هذه الضرورات الثلاث أنفسها قوة وضعفاً ما بين أمة وأمة .

هذا كُله في البعد المفاهيمي العام لنظرية
المسألة المطروحة بين أيدينا . بقي علينا ان
نتحدّث عن المصداق المقصود هنا وهُم شيعه
العراق اليوم ومدى تفاعلهم النفسي مع هذه
الضرورات الثلاث :
الزمنُ , الأرضُ , المعتقُدُ .

وقبل الحديث عن هذه العناوين الثلاثة لأبَدَّ
من ذكر أمرين في غاية الأهمية تمهيداً للتوغُّلِ
في الحديث عن هذه الضرورات الثلاث ,
وهُما :

أولاً - إنَّ ما يُصطَلَحُ عليه بعالم اللاشعور أو

طبقة اللاشعور في النفس الإنسانية سواءً في الفرد أو في الأمة له الحظُّ الأوفر والنصيب الأكبر في تكوين مواقف الإنسان وردود أفعاله وطبيعة تصرّفاته المختلفة إذا ما قيس بعالم الشعور ومدى تأثيره في ما يصدر عن الإنسان ، بل لو تعمّقنا في حقيقة الأمر لوجدنا أن الشعور في حقيقته هو انعكاس اللاشعور على سطح النفس الإنسانية أو ظاهرها بعبارة مُقاربة ؛ إذ أنّ اللاشعور في حقيقته هو خزانةٌ كلّ ما تنفعلُ به النفسُ البشرية منذ مرحلة الأجنّة وحيثُ الإنسانُ

في رحم أمه. وكلما إزداد انفعال النفس البشرية بسبب قوة شيء ما أثر فيها كلما قوياً واشتدَّ انطباع ذلك الأثر في خزانة اللاشعور. ويترتبُ على ذلك تأثيرُ ذلك الانطباع على عالم شعور الإنسان وما يصدر منه، فكلما كان ذلك الانطباعُ اللاشعوريُّ قوياً كلما كان تأثيره أقوى وأقوى في أفعال الإنسان وردود أفعاله .

ثانياً - إن الترابط الشديد والتلازم الوثيق بل عدم الإنفكاك بين هذه الضرورات الثلاث :
الزمنُ والأرضُ والمعتقد بالنسبة لشيعة العراق

امرٌ واضحٌ يتجلّى بيناً عند أول نظرة فاحصة
على معطيات هذا الموضوع وتفصيلاته . بل
يُمكن القول أن لا شبهةً لمثل هذا الترابط
والتفاعل بين تلكم الضرورات الثلاث في
مكان آخر أو أمةٍ أخرى .

الزمن

حين نتحدّثُ عن الزمن فهو الزمن الأرضي
اذ لكل جُرمٍ سماويٍّ زمانه وأيامه وسنواته .
فزماننا هو زمان كوكبنا الأرضي وهو في
مضمونه الفيزيائي دوران الأرض حول
نفسها وحول الشمس, وفي مضمونه
الإنساني تفاعل وجدان بني البشر وإحساسهم
بعمق ما يواجهونه من أحداث وحوادث
الحياة أثناء هذا الدوران الأرضي . ومن هنا
فإنَّ أياماً يقضيها الإنسان مع حبيبٍ طال

بعاده وزاد الشوقُ إليه لهي أقصرُ بكثيرٍ من
دقائقٍ قليلةٍ تتصرَّم في لقاءٍ مع شخصٍ ثَقِيلٍ
بغِيضٍ، فالمقياسُ هنا ليس آلاتِ التوقيتِ
وضبطِ الزمانِ بل هو الوجدانُ وانطباعاتُه
عمَّا يواجهه من الأحداثِ والحوادثِ .
فحيثما كانت الأحداثُ مُؤنسةً مُفرحةً جميلةً
كان الزمانُ جميلاً قصيراً خفيفاً، وحيثما
كانت الحوادثُ مؤلمةً مُقرحةً حزينةً كان
الزمانُ حزيناً طويلاً ثَقِيلاً . وحين يشتدُّ تأثيرُ
الأحداثِ والحوادثِ على الإنسانِ يكاد
الزمنُ الإنسانيُّ أن يذوبَ فيهما وهما يذوبان

فيه؛ فيُصبحُ الزمن هو الحدث والحدث هو الزمن .

وتلك هي قصةُ الإنسان مع الزمن !!
وما قصةُ شيعة العراق مع الزمن ببعيد عن ذلك، فلقد اکتوى شيعة العراق بآلام مظلومية أهل البيت عليهم السلام واستشعروها أكثر مما جرى على أنفسهم وذواتهم من ظلمٍ وجورٍ شديدين، بل اندكت مظلوميتهم بتمامها وذابت في مظلومية أهل البيت عليهم السلام . وزاد على ذلك استشعارهم اندكاك الزمان وذوبانه في طيّات

هذه الحوادث المفجعة المريعة .

ولذا عاشوراء مثلاً ليست زماناً في الوجدان
الشيوعي العراقي انها حدثٌ تذوبُ فيه كلُّ
الأزمنة وتندكُّ فيه كلُّ الأوقات, بل تكاد
كلُّ الأحداثِ ان تذوب في هذا الحدث، ولو
تفحصنا في اللاشعور العراقي لوجدنا ذلك
جلياً حتى في أمور من المفترض انها أبعدُ ما
تكون عن التأثير بمثل هذه المعاني .

خذ إليك الغناء العراقي وشعر الغزل العراقي
مثلاً في الوسط الشيوعي وغير الشيوعي فإنك
ستجدُ أنَّ الشجنَ والحزنَ ولذعةَ الألمِ وأنينا

يُخرج من عمق الاحساس متدفقاً من كل
معانيهما وليس لذاك من تفسيرٍ منطقيٍّ الا ما
مرّ قبل قليل .

ومن هنا فإنّ الزمن في الوجدان الشيعي
العراقي أصبح مندكّاً في أحداث وحوادث
اعتقادية إن كان في ماضيه أو حاضره بل
حتى في مستقبله . ومفصلُ المفاصلِ جميعاً
عاشوراء, وما نراه اليوم من زحف الملايين
من شيعة العراق من كل حدبٍ وصوب
لزيارة كربلاء رغم كل المعوّقات المادية
والمعنوية بظاهرةٍ طارئةٍ أو مسألةٍ آنيةٍ, إنها

استجابةُ الوجدان لانطباعات اللاشعور حيث
تندكُ المعاني العقائديةُ في الحدث ويندكُ
الزمانُ في الحدث أيضاً, وتبقى عاشوراءُ
كسيدها مصباح هُدىً تختصرُ الأزمنة
وتطوي الأحداث والحوادث طياً يجعلها
كبؤرة تتركزُ فيها كلُّ المعطيات وتنتهي
عندها كلُّ المسارات فمن أطرافها بدايتنا
وعند مشارفها نهايتنا .

الأرض

أرضُ العراق كانت مهبطَ أبنينا آدم عليه السلام, ومسكنَ نوح عليه السلام وطوفانه, وموطنَ إبراهيم عليه السلام, ومهدَ توحيده . وفوق صعيدها مرّت مواكبُ أنبياء الله وقوافلُ أوليائه .

هكذا حدّثنا المعصومون عليهم السلام وأخبرونا أنّ لهذه الأرض شأنًا في بداية الاستخلاف البشري وأنّ لها شأنًا عظيمًا عند النهاية السعيدة لهذا العالم, وأنّها تتمازُ

بخصائص تحملُ في مضامينها رموزاً لمعالم
المخطط الالهي الكبير لهذا الإنسان المُستخلف
على الأرض .

ارضُ العراقِ هي الأرض التي امتزجت ذرّاتها
بالدم العاشورائي المقدّس . وكان الصعيْدُ
الكربلائيُّ المذبحَ الذي قُدِّمَ عليه القُربانُ
الذي لا مثيل لآلامه ومأساته, حيثُ اندكّت
الحقائقُ في بعضها وذاب الزمانُ سريعاً في
عمق الحدث وتماهى المكان بينهما وتلاشت
أجمعها عند حقيقةٍ مُفردةٍ شاخصه اسمها
(الحسين) في فنائها ينطوي الزمانُ سراعاً

ما بين ماضٍ وحاضرٍ وآتٍ، ويختفي المكانُ
بعيداً بعيداً تحت ظلال هذه الحقيقة الشاخصة
التي تمدُّ خيوطَ اشعتها وجدائلَ ضيائها
وأواجها النورية المتلاطمة في عمق وجدان
هذه الأمة التي حملت في شعورها ولا
شعورها ألم عاشوراء بقدر ما يؤذيها ويؤرقها
تجبه وتحنو عليه وتسهر عليه مخافة ان يزوي
ولن يزوي أبداً؛ لأن الشاخص الذي وهب
لعلين علوها لا نهاية لعلوه قد ختم هذه
النفوس بألمه وحبّه ودمه، والثلاثة هذه عصية
على الذوبان فشاخصها الأقدس لن يذوب

وَمُحَالٌ أَنْ يَذُوبَ، فَلَوْ ذَابَ ذَابَ كُلُّ شَيْءٍ
مَعَهُ وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ؛ فَحِكْمَةُ الْوُجُودِ
وَالْإِيجَادِ حِكْمَةُ الْبَقَاءِ .

وبهذه العُجالة ترسمُ صورةً موجزةً عن عُمقِ
الغورِ الذي تركه الزمنُ المُثقلُ بالآلامِ المُتقلِّبةِ
فوق أرضِ الأحزانِ والمأساةِ في باطنِ التكوينِ
النفسيِ المعنويِ لهذه الأمةِ التي نتحدَّثُ عنها،
والتي علّمتها حكمةُ الحقيقةِ وحكمةُ الحياةِ
أَنَّ الزمْنَ الجميلَ آتٍ وقريبٌ بقُربِ الحبِّ
والأملِ والتفاؤلِ لا بقُربِ الساعاتِ والأيامِ
إذ ذاكِ في علمِ اللهِ تعالى وما بعيدٌ ما هو آتٍ!

المُعْتَقَدُ

حين أتحدّثُ عن المُعتقِدِ في هذه السطور
فليس مرادي منه البعدُ الفلسفي الذي يبتني
على قواعد عقلية واصل نظرية وإعمالٍ
للفكر للوصول إلى النتائج السليمة والأفكار
القويمة . إنّما أقصدُ منه البعدَ الوجداني الذي
له عظيم الأثر في دفع الإنسان وتحريكه في
اتجاهاته العملية الحياتية وما يصاحبها من
مواقفٍ وعلاقاتٍ بالآخرين وبمختلف الأشياء
من حولنا . ولقد مرَّ بعضُ الحديثِ عن

الزمنِ وعن الأرضِ وتأثيرهما على البنيةِ
النفسية للمجتمع الشيعي العراقي بما يجملان
من خصوصياتٍ ترسّخت فيهما بسبب عمق
أحداثهما وحوادثهما، ولكنّ الصورةَ لن
تكتملَ من دون الإشارةِ الى المُعتقَدِ الذي
يُغذّيّ تلكم المعاني ويُشدّدُها في القلوبِ
والأفئدة، وهذا ما دأبتُ عليه كلماتُ
المعصومين عليهم السلام المتوافرةُ والمتواسقةُ
على طول الخطِ الزمّني الذي تكلموا فيه
وأرسوا دعائم الهدى التي استجابت لها نفوسُ
مُحبي أهل البيت عليهم السلام، فكانَ المزيجَ

الأمثل ما بين حُزنِ عاشورائيٍّ كربلائيٍّ
حسينيٍّ تهيمُ به الأرواحُ والمهَجُ، وما بين أملٍ
بقائمٍ حين يقومُ تقومُ معه الحقائقُ كُلُّها
ويكون انبعاثُهُ من لبابِ الحقيقةِ الحسينيةِ
الشاحِصةِ ليتجلَّى المشهدُ الإنسانيُّ على أروع
ما يكون ما بين حزنٍ يأخذُ بمجامعِ النفوسِ
الى بؤرةٍ واحدةٍ تتكثَّفُ فيها طاقاتُ العقولِ
والقلوبِ، وبين ساحةٍ للأملِ والتفاؤلِ تفتِّحُ
أبوابها بيومِ أَسْمَوْه :

(يوم الخلاص)

تَحُطُّ فيه البشريةُ رحالها بعد نأيٍ ولأَيِّ

وَتَعَبٌ وَرَهَقٌ وَلَعَبٌ وَنَصَبٌ لَتَكْتَمَلَ صُورَةٌ
الْمُعْتَقِدِ الشَّيْعِيِّ مِنْ فَوَاتِحِهِ إِلَى خَوَاتِمِهِ يَشْعُرُ
بِالْوَضُوحِ وَعِنَاصِرِ الْقُوَّةِ وَالثَّبَاتِ كَيْ يُلْهِمَهُ
الْأُمَّةَ مَا يَحْفَظُ كِيَانَهَا وَيُقِيمُ أَوْدَهَا رَغْمَ
عَادِيَاتِ الْعُصُورِ وَنَوَازِلِ الْحَادِثَاتِ، وَيَمُدُّ
إِلَيْهَا مَدَدَ الْعِزْمِ وَالْحَزْمِ لِتَتَوَلَّدَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ
الدَّوَاغِعُ النَّفْسِيَّةُ الْقَوِيَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى الْعَمَلِ
وَالنَّشَاطِ وَالسَّعْيِ الْمُثَابِرِ لِتَحْقِيقِ الْإِهْدَافِ
وَالْمَقَاصِدِ، فَلَيْسَ خَفِيًّا أَنَّ قُوَّةَ الدَّوَاغِعِ هَذِهِ
مَرْدُّهَا إِلَى قُوَّةِ الْمُعْتَقِدَاتِ، فَكَلَّمَا قَوِيَ الْمُعْتَقِدُ
فِي النُّفُوسِ كَلَّمَا زَادَ انْدِفَاعُهَا وَعَلَتْ هِمَّتُهَا

وتدفق إبداعها وهان عليها كلُّ عناءٍ وجُهدٍ
وجهدٍ كؤود .

إنَّ عقيدةً ثابتةَ الأركان تكونُ أملاً صادقاً
لأمةٍ تعيشُ انتظارَ الفوزِ والفلاحِ في عميقِ
وجدانها لهيَ كنزٌ عظيمٌ يحملُ بين طياتهِ
كلَّ أسرارِ النجاحِ وأسبابِ التطورِ ودوافعِ
العملِ والحياة، وذلك هو المعنى الحقيقي
لانتظارِ الفرجِ الذي قال عنه سيد الكائنات
صلَّى اللهُ عليه وآله :

(أفضلُ عبادةِ أمتي انتظارُ الفرجِ)

إنه الصبرُ الواعي والاملُ الحقُّ والتفأؤلُ

الصادقُ كلُّ ذلك مصحوبٌ باليقظةِ والفهمِ
والتخطيطِ والحكمةِ والعملِ الجادِّ المتواصلِ؛
لُحافظِ الأُمّةِ على بنيتها الاجتماعيةِ وكيانها
العقائدي الفكري بتوطين النفوس على الحقِّ
والتضحية في سبيله ولا يتحقق ذلك من دون
مشروع متكاملٍ ينهض باعبائه الجميعُ
يُحصن مصالح الأُمّةِ الاقتصادية والاجتماعية
والسياسية ويذهبُ بها الى برِّ أمانها؛ فتجمعُ
لأبنائها ما يرفع شأنهم في دينهم ودنياهم .

أواخرُ السطور

ما تمَّ ذكرُهُ في هذه الصفحات القلائل كان

على شطرين :

الاول منهما كان عرضاً مجملاً موجزاً

لمشروع مفترضٍ يراد منه تحصين البنية

الاجتماعية والعقائدية لشيعة العراق والحفاظُ

على كيانهم الاقتصادي والسياسي تجنُّباً

للكوارث التي انهكتهم ان تعودَ ثانيةً .

والثاني منهما كان بياناً سريعاً مقتضباً لمنشأ

الحالة النفسية والعمق الوجداني والفهم

العقائدي الذي يُمازجُ قلوب و نفوس شيعة العراق . أملاً في ان يتنفسَ شيعةُ العراق الصُّعداءَ وهم يسعونَ الى نظم أمورهم والحفاظ على مصالحهم وبناء بلدهم مع كلِّ مكُونات العراق السكانية من أبناء وطنهم للنهوض بهذا البلد الذي قطّعه الفتنُ أوصالاً ولبناء دولة قوية على أساسٍ متين من المساواة بين الجميع في حقوقهم وواجباتهم، وما ذلك على الله تعالى بكثير إن صحَّت النوايا وطابت النفوس .

الخاتمة :

إنَّها مجردُ أمنيةٍ فحسبُ! تلك الكلماتُ التي حبرتها وكتبتها . أمنيةٌ تُراوِدُ الفكرَ لا أحسبُني أراها ولا حتى أحفادي؛ فإنَّ تفشِّيَ الجهلِ المركبِ⁽¹⁾ في عديدٍ من افرادِ الجهاتِ التي يُفترضُ بها القيامُ بهذا المشروعِ وأمثاله، وكذلك انتشارَ المحسوبياتِ والمنسوبياتِ، وشيوعَ الأميةِ ولا أعني بها أميةَ القراءةِ والكتابةِ وإنما أميةَ ثقافةِ العصرِ وأميةَ

(1) هو ان يجهل الانسان ويجهل أنه يجهل، وتلك طامئنا الكبرى التي يكاد ان يستحيل علاجها .

التخطيط الواعي وأمية الكفاءة والخبرة
والاهمُّ من كل ذلك انعدامُ الحماس
العقائدي الشيعيِّ الأصيل الواعي الذي يجعلُ
من همِّ آل محمد صلوات الله عليهم زاداً
نستطعمه في كل حين، ونفساً نستنشقه في
كلِّ آن فنحيى به، وهماً ساخناً حياً ننامُ
ونستيقظُ عليه . كلُّ ذلك يُشكِّلُ عوائق
كونكرتية ضخمة تحولُ دون الوصول الى
الأهداف المأمولة . ولكنَّ المؤمنين يعيشون
بصبرٍ وأملٍ لعلَّ الله تعالى يُحدثُ أمراً . صبرٌ
هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد كما

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَأَمَلٌ فِيهِ عِزَاؤُنَا إِذْ
يَقُولُ سَيِّدُ الْأَوْصِيَاءِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
وَالسَّلَامِ : (لَوْلَا الْأَمَلُ لَبُطِلَ الْعَمَلُ) .
وَأَخْتَمُ مَقَالِي هَذَا وَأَنَا أَنْشِدُ مَا أَنْشَدَهُ
الطُّغْرَائِيُّ فِي لَامِيَّتِهِ الْمَشْهُورَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِلَامِيَّةِ
الْعَجَمِ :

أَعْلَلُّ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا
مَا أَضْيَقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمَلِ

الغزّي
1429 هـ